الخطاب الثالث و الثلاثون

سِلسِلَةُ مُحَاضَراتِ:
لا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُمْ

المُحاضَرَةُ الثالِثَة، وَ هِيَ بِعُنوان:

(القَابِضُونَ عَلى الجَمْرِ)

27 شعبان 1426 هـ
30 سبتمبر/أيلول 2005 م

بِصَوْتِ الشَيخ
أَبِيْ مُصْعَبٍ الزّرْقَاوي (رَحِمَهُ الله)

الحمدُ للهِ معزِّ الإسلامِ بنصرِه، ومذلِّ الشركِ بقهره، ومصرِّف الأمور بأمره، ومستدرجِ الكافرين بمكره، الذي قدّر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبةَ للمتقين بفضلِه، والصلاةُ والسلام على من أعلى الله منارَ الإسلامِ بسيفِه.

أمَّا بعد؛

فمِمَا لا شك فيه أن الواقع هو الوعاء الذي تتجمع فيه الفتن و المحن المتعددة من شبهات و شهوات و ابتلاءات على اختلاف صنوفها و أشكالها، في مواجهة أهل الطائفة

المنصورة، لفتنتهم عن القيام بأمر الله، علمًا و عملاً، دعوة و جهادًا.

و لا شك أن هذه الفتن و المحن لا تُدفع بغير الصبر و اليقين، و من المُسَلَّمِ به أن للواقع الجاهلي؛ القائم على غير قاعدة العبودية لله وحده، ضغطًا شديدا على كاهل كل من يريد القيام بأمر الله، حيث المسافة الشاسعة و الهوة الواسعة بين أمر الله و الواقع، و هذا مع الحرب الضروس التي تُشن لكل من نصب نفسه لهذه المهمة العظيمة من قِبل أركان هذه الجاهلية و العناصر المتعددة المشاركة فيها بوجهٍ أو بآخر، و هم:

أولاً: طواغيت الأرض؛ أهل الحكم، و ما في أيديهم من إمكانات و قدرات فائقة لفتنة رغبًا و رهبًا.

ثانيًا: علماء السوء؛ الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، و رضوا بالحظ الخسيس، و لقيمات الذل و العار التي يلقيها إليهم الطاغوت من فتات موائده لإضلال العباد و فتنتهم عن أمر الله.

و هل أفسد الدين إلا الملوك * و أحبار سوء و رهبانها**

ثالثاً: أهل الأهواء و طوائف البدعة؛ على اختلاف بدعهم و تعدد أهوائهم، و ذلك أن الإتباع الصادق يكشف زيف ما هم عليه، و يفضح ضلالهم و إضلالهم، و من ثم يعلنونها حربًا على كل من أراد رد الناس إلى الأمر الأول، و هم في هذا السبيل لا يستحيون من التحالف مع الطواغيت و علماء السوء، لتكوين جبهة واحدة مشتركة، لصد الناس وفتنتهم عن دينهم.

رابعاً: العوام من الهمج الرعاع؛ أتبلع كل ناعق، و وقود كل فتنة، ممن لم يستضيئوا بنور العلم، و لم يركنوا إلى ركن وثيق، فهمهم الأكبر إشباع غرائزهم و قضاء شهواتهم و نيل لذائذهم، لا يعرفون للحياة معنىً غير هذا، و بئست الحياة.

و من الطبيعي أن يكون هؤلاء في خندق الطاغوت و حلفه، وأن يكونوا هم قطيعه الذي يقوده حيث شاء، و عصاته التي يبطش بها بكل من أراد القيام بأمر الله و الثبات عليه.

و هؤلاء أصناف شتى جمعهم حب الدنيا، و ألّف بينهم التعلق بزينتها و شهواتها من جاه و منصب و نساء و مطعم و مشرب و غيرها من حظوظها الفانية، و رحم الله الإمام ابن بطة، حيث قال: (و الناس في زماننا هذا أسراب كالطير، يتبع بعضهم بعضًا، لو ظهر لهم من يدعي النبوة مع علمهم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم خاتم الأنبياء، أو من يدّعي الربوبية لوجد على ذلك أتباعًا و أشياعًا). انتهى كلامه.

و إذا كان كلامه رحمه الله عن زمانه، فهل يستغرب على أهل عصرنا إلا من رحم الله الوقوف في صف الباطل و أشياعه لمحاربة الحق و أتباعه.

و يساهم في هذا الواقع من يكون فتنة هي أشد على الكثيرين مما سبق، و هو ممن عرف الحق أو قام بشيء منه، و لكنه عجز عن القيام به كاملًا، و على الوجه الذي يحبه الله و يرضاه، لسببٍ أو لآخر، فراح ينشر الشبهات و الأراجيف، لتثبيط كل من أراد القيام بأمر الله على الوجه الذي يرضيه سبحانه، ليسلم له حاله، و تبقى له مكتسباته، و إنما كانت هذه الفتنة أشد و ضررها أعظم، لما يمثله التلبيس و التدليس من خصوصية في إخفاء الحق و صد الناس عنه، و رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: (و لا ينفق الباطل في الوجود إلا بشوب من الحق) و بهذا

الترتيب العجيب و التمازج الشديد، أضحى الأمر كما قال القائل:

و لتشهدن بكل أرض فتنة * فيها يباع الدين بيع سماحِ**
يُفتى على ذهب المعز و سيفه * و هوى النفوس و حقدها المذحاحِ**

و هكذا يضغط الواقع على الكثيرين ممن يسعون للقيام بأمر الله، حيث يشعر هؤلاء أن كل من حولهم يخالفهم في ما هم عليه، بل و ينابذهم على ذلك بكل ما يستطيع، فهم يسيرون في طريق موحشة، لا معين فيها و لا أنيس، و الجميع حولهم يدعوهم ليسالموا أو يداهنوا أو يقفوا موقفاً وسطاً و يلتقوا مع الجاهلية في منتصف الطريق، بدعاوى و شعارات معلومة مشهورة.

و تزداد الفتنة و تعظم البلية، عند صبغ هذه الدعاوى بصبغةٍ شرعية، و تخريجها تخريجاً فقهياً، يعتمد الوسطية و ينبذ و يحارب التشدد، فتنهال الاتهامات من مختلف المستويات على من يريد القيام بأمر الله متهمين إياه بالتطرف و الغلو بل بالإرهاب فضلاً عن الخارجية، فيجد العبد نفسه محاصرًا بدائرة محكمة من الاتهامات و الإدانات، و التي لا ينقصها التدليل الشرعي، تصمُّ مسامعه صيحاتها، من كل حدب و صوب منادية عليه ببطلان ما هو عليه، و مروقه عن الطريق القويم، و حيدته عن الصراط المستقيم، و بعده عن الدين، و مخالفته للعالمين أجمعين، و الهدف هو الضغط على العبد ليتجنب الانتساب للحق في خاصة نفسه، فضلا عن دعوة الآخرين إليه، و من ثم التنازل و التراجع و النكول و النكوص عن أمر الله، و مسايرة الواقع القائم.

و قد جاء عن الإمام الفضيل بن عياض - رحمه الله – أنه قال: (كيف بك إذا بقيت إلى زمان شاهدت فيه أناسًا لا

يفرقون بين الحق و الباطل و لا بين المؤمن و الكافر و لا بين الأمين و الخائن و لا بين الجاهل و العالم و لا يعرفون معروفًا و لا ينكرون منكرًا) انتهى كلامه.

قال الإمام ابن بطة – معلقًا على قول الفضيل -: (فإنا لله و إنا إليه راجعون، فإنا قد بلغنا ذلك و سمعناه و علمنا أكثره و شاهدناه، و لو أن رجلاً ممن وهب الله له عقلاً صحيحًا، و بصرًا نافذًا، فأمعن نظره و ردد فكره، وتأمل أمر الإسلام و أهله، و سلك بأهله الطريق الأقصد و السبيل الأرشد، لتبين له أن الأكثر و الأعم و الأشهر من الناس قد نكصوا على أعقابهم، و ارتدوا على أدبارهم، فحادوا عن المحجة و انقلبوا عن صحيح الحجة، و لقد أضحى كثير من الناس يستحسنون ما كانوا يستقبحون، و يستحلون ما كانوا يحرّمون، و يعرفون ما كانوا يُنكرون) انتهى كلامه.

و الجملة الأخيرة من كلام ابن بطة، هي إشارة جليّة إلى فتنة ضغط الواقع، حيث يتضغط الكثيرون بضغط الواقع و من خلال طوق الجاهلية المحكم و الذي يحيط بالعبد من كل مكان إحاطة السوار بالمعصم، فيسقطون و قد انكسرت قلوبهم و هُزمت نفوسهم و ناءت كواهلهم، تحت مطارق هذا الضغط العنيف لنفي تلك الاتهامات عن أنفسهم، بل و التبرؤ منها و من أصحابها، و إظهار أنهم أصحاب منهج مغاير، يقوم على الاعتدال و العقلانية و الوسطية و ينبذ التشدد و المثالية الخيالية و يتمشى مع الواقع القائم، فلا يحاربه أو يسعى إلى استبداله و ينحو نحو الإصلاح الرقيق و التغيير السلمي الذي ينطلق من هذا الواقع و يسايره، و يرجع إليه لا غير، و هم في سبيل ذلك يتكيفون في كل قالب، و يتطاوعون لكل ضاغط.

و لهذا المنهج الانهزامي التلفيقي سلسلة أليمة من المفردات و المظاهر المتعددات و التي يجمعها كلها كونها إفرازات ضغط الواقع الجاهلي، فمحاولة الالتقاء و الانسجام مع هذا الواقع و مسايرته و عدم الظهور بمظهر

الخارج عليه هو مصدر هذه السلسلة من المفردات و مرجعيتها، و إن كان ذلك على حساب تطويع المُحَكَّمات و القطعيات الثابتة بالكتاب و السنة و الإجماع لهذا الواقع بل و التجاسر على إدعاء النسخ فيها.

و من ذلك ما قرره بعضهم في تجاسر و جرأة على دين الله، يحار فيها العقل السليم، من أن أحكام أهل الذمة قد نُسخت كليًا و جزئيًا، بما يعرف اليوم بأحكام المواطنة، و مهما قيل حول هذه السلسلة الأليمة من المفردات و المظاهر تبريرًا أو تفسيرًا، فليس لأصحابها من موقع في صفوف الطائفة المنصورة أبدًا.

و من أخطر نتائج الوقوع في هذه الفتنة، هو استمراء المنكر و اعتياده، حتى قد يزول إنكاره بالكلية من القلب نتيجة هذه المسايرة المنهجية للواقع و التي تؤدي إلى استمراء المنكر و الرضا به، بل قد يستقر في القلب استحسانه و الإنكار على من أنكره، إذ كل ما انضغط العبد و تراجع للوراء خطوة بفعل ضغط الواقع، إزداد استعداده للانضغاط و التراجع خطوات، و ما يزال به هذا النهج، حتى يصبح الانضغاط للواقع و التراجع و التنازل له خلقًا و دينا للعبد، و تضعف لديه إرادة الثبات بصورة مستمرة حتى تتلاشى تمامًا، و تصير لديه القابلية التامة للتنازل و التراجع عن كل شيء و أي شيء بسهولة و يسر.

قال سيد - رحمه الله -: (الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق، و صاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزءٍ منها و لو يسيرًا، لا يملك أن يقف عند ما سلَّم به أول مرة، لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء). انتهى كلامه [في ظلال القرآن / الإسراء / آية 73-75].

و قد تتعاظم فتنة ضغط الواقع، و تستفحل في نفوس البعض، حتى تكون سببًا في الوقوع في الكفر و الشرك

الصراح، و قد أعلمنا الله سبحانه و تعالى أن هذه الفتنة كانت السبب الرئيس في وقوع الكثيرين في الكفر و الشرك، رغم ما قام لديهم من العلم بل و اليقين في صحة و صدق ما جاء به الأنبياء و الرسل.

قال تعالى حكاية عن قوم نوح – عليه السلام - أنهم قالوا ردّا عليه: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: 24].

وحكى الله تعالى عن قول هود قولهم له: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا} [الأعراف: 70].

و قال تعالى عن قوم صالح: {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا} [هود:62].

فنظائر هذه الآيات في القرآن كثيرة معلومة وكلها مصرحة أن العبد قد يخرج من الحق إلى الباطل خضوعًا لضغط الواقع و مسايرة للناس و لما هم عليه، حيث للجموع و الحشود الغفيرة و العادة المتأصلة و الإرث المتداول المحفوظ سطوة قوية و هيبة في نفوس الكثيرين؛ تدفعهم لمخالفة الحق و موافقة الباطل و الإذعان له.

و كأن حذيفة صاحب السر [illegible] الفتن -رضي الله عنه– كان يشير إلى فتنة ضغط الواقع تلك حين قال: (أخوف ما أخاف على الناس اثنتان: أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون، و أن يضلوا و هم لا يشعرون) .

أما أهل الطائفة المنصورة فهم يدفعون ضغط الواقع و لا ينضغطون له أو به، إذ عملهم هو في الأساس و المقام الأول: إخضاع الواقع لأمر الله و أطره عليه أطرًا و هم يقومون بذلك بفضل الله أولاً ثم بيقينهم و صبرهم ثانيًا، إذ فتنة ضغط الواقع هي فتنة الغربة بجوانبها المتعددة و

مظاهرها المختلفة التي يعيشها أهل الطائفة المنصورة في سعيهم نحو إقامة أمر الله.

و قد كان الحسن –رحمه الله– يقول: (صدق الله و رسوله، باليقين طلبت الجنة، و باليقين هُرب من النار، و باليقين أُدّيَت الفرائض، و باليقين صبر على الحق، و في معافاة الله خير كثير، قد و الله رأيناهم يتقربون في العافية فإذا نزل البلاء تفارقوا) انتهى كلامه [الزهد لابن المبارك بنحوه].

فأهل الطائفة المنصورة يصبرون على غربة الطريق و لا يوحشهم قلة السالكين، و لهم في ذلك الأسوة التامة بخير خلق الله و صفوتهم من الأنبياء و الرسل -عليهم السلام-.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج علينا النبي صلى الله عليه و سلم يومًا فقال: (عرضت علي الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، و النبي معه الرجلان، و النبي معه الرهط، و النبي ليس معه أحد) [متفق عليه، البخاري 5420].

فقلة السائرين و غربة الطريق وتفرد السير من نهج الأنبياء و المرسلين في القيام بأمر الله، و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (بدأ الإسلام غريباً و سيعود كما بدأ فطوبى للغرباء) [صحيح مسلم 145].

فنص النبي صلى الله عليه و سلم على أن الغربة هي أصل هذا الأمر، و أساسه و إليه يرجع.

و قال الطرطوشي - رحمه الله -: (و معنى هذا الحديث: أنه لمّا جاء الله بالإسلام، فكان الرجل إذا أسلم في قبيلته و حيّه غريبًا فيهم، مستخفيًا بإسلامه، قد جفاه الأهل و العشيرة، فهو بينهم ذليل حقير خائف، يتغصص بجرع الجفاء و الأذى، ثم يعود غريبًا لكثرة الأهواء المضلة و

المذاهب المختلفة، حتى يبقى أهل الحق غرباء في الناس، لقلتهم و خوفهم على أنفسهم) انتهى كلامه.

و قال القرطبي - رحمه الله -: (إن قرنه صلى الله عليه و سلم إنما فضل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم، لكثرة الكفار و صبرهم على أذاهم و تمسكهم بدينهم، و إن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين و تمسّكوا به و صبروا على طاعة ربهم، في حين ظهور الشر و الفسق و الهرَج و المعاصي و الكبائر، كانوا عند ذلك أيضًا غرباء و زكت أعمالهم في ذلك الوقت، كما زكت أعمال أوائلهم، و مما يشهد لهذا قوله -عليه الصلاة و السلام-: (بدأ الإسلام غريباً و سيعود كما بدأ فطوبى للغرباء)) انتهى كلامه [تفسير القرطبي].

و أعظم ما تكون غربة الإسلام وأهله القائمين به علمًا و عملاً، دعوة و جهادًا، إذا ارتد الداخلون فيه عنه، و قد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ } [المائدة:54].

فهولاء يقيمونه إذا ارتد عنه أولئك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد تكون الغربة في بعض شرائعه، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة، ففي كثير من الأمكنة يخفي عليهم من شرائعه ما يصير به غريبًا بينهم لا يعرفه منهم إلا الواحد بعد الواحد.

ومع هذا، فطوبي لمن تمسك بتلك الشريعة كما أمر الله ورسوله، فإن إظهاره، والأمر به، والإنكار على من خالفه هو بحسب القوة والأعوان.) انتهى كلامه [مجموع فتاوى شيخ الإسلام /فصل: حديث بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ].

و قال شمس الحق آبادي - رحمه الله -: (فطوبى للغرباء من أمتي، يريد المنفردين عن أهل زمانهم) [عون المعبود 4341].

و قد وصف الشارع هؤلاء الغرباء بجملة من الأوصاف، منها: أنهم نزاع الناس، أو النزاع من القبائل، و النزاع جمع نزيع و نازع، و هو الغريب الذي نزع عن أهله و عشيرته، و النزائع من الإبل الغِراب.

قال الهروي - رحمه الله -: (أراد بذلك المهاجرين الذين هجروا أوطانهم إلى الله تعالى.) انتهى كلامه [شرح النووي على صحيح مسلم 145].

و جاء في وصف الغرباء:

أنهم الفرارون بدينهم، أو الذين يفرون بدينهم من الفتن، و أنهم أناسٌ صالحون قليل في أناس سوء كثير، و من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم، و أنهم الذين يصلِحونَ إذا فسد الناس، و أنهم الذين يتمسكونَ بكتابِ الله حين يترك و يعملون بالسنة حين تُطفى، و أنهم الذين يحيون ما أمات الناس من سنة النبي صلى الله عليه و سلم، و هذه الأوصاف المختلفة من النبي صلى الله عليه و سلم للغرباء، و إن كانت تظهر من جهة عظم الدور الذي يقوم به هؤلاء الغرباء في زمن الغربة من القيام بأمر الله و الثبات عليه، فإنها من جهة أخرى تظهر عِظم غربة هؤلاء و شدّتها، و عظم صبرهم عليها، و نُقل عن سيد العباد بعد الصحابة (أويس القرني)، أنه قال: (إن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لم يدعا للمؤمن صديقًا، نأمرُهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، و يجدون في ذلك أعوانًا من الفاسقين، حتى و الله لقد رموني بالعظائم، و أيم الله لا أدعُ أن أقوم فيهم بحقه) [سنن أبي داوود 4341].

فمن هذا الباب يرجع الإسلام غريبًا كما بدأ، لأن المؤالف فيه على وصفه الأوّل قليل، فصار المخالف هو الكثير، فاندرست رسوم السنة حتى مدّت البدع أعناقها فأشكل مرماها على الجمهور فظهر مصداق الحديث الصحيح كما بيّن ذلك الشاطبي، رحمه الله.

فقد ذكر الصادق المصدوق صلى الله عليه و سلم أن غربة القائمين بأمر الله، الثابتين عليه، قد تشتد و تستحكم إلى أن يصبح حال هؤلاء الغرباء كحال القابض على الجمر.

فعن أبي ثعلبة الخشني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل القبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله)، قالوا يا رسول الله: أجر خمسين منهم؟ فقال صلى الله عليه و سلم: **(أجر خمسين منكم)** [نحوه في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لعبد الغني بن عبد الواحد المقدسي].

و في تشبيهه صلى الله عليه و سلم المتمسك بدينه الصابر عليه، بالقابض على الجمر، **دلالات هامة، منها**:

أولاً: شدة غربة الدين، و شدة غربة أهله القائمين به.

ثانياً: شدة و عظم و ثقل ضغط الواقع على هؤلاء القائمين بأمر الله لصرفهم و فتنتهم عنه.

ثالثاً: عظيم صبر هؤلاء القائمين بأمر الله، و عظيم ثباتهم في هذه الغربة الحالكة.

رابعاً: أن اشتداد الغربة في الدين و أهله القائمين به إلى الدرجة التي تجعل العبد كالقابض على الجمر، ليس مبررًا للنكول و النكوص عن أمر الله و الحيدة عنه، و التفريط

فيه، و أنّه ليس هناك غير الاستمرار في القبض على الجمر.

و لما قيل للإمام أحمد أيّام المحنة: (يا أبا عبد الله أولا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل، قال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلال، و قلوبنا بعدُ لازمةٌ للحق).

خامساً: أن ضغط الواقع الشديد من هذه الغربة المستحكمة، لا يدفع بغير الصبر، لا بالأخذ في بُنيّات الطريق و العدول عن الجادّة، و لذلك كلّه نسب النبي صلى الله عليه و سلم هذه الأيام للصبر، و إنما نُسبت كذلك لأن العبد بدون الصبر، بل و الصبر العظيم الذي يضارع صبر القابض على الجمر، هيهات هيهات أن يسلَمَ له دينه، مع هذه المحن و الأهوال التي تحيط به من كل جانب، و قد جاء عن حذيفة - رضي الله عنه - أنه أخذ حجرين، فوضع أحدهما على الآخر، ثم قال لأصحابه: (هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور؟ قالوا: يا أبا عبد الله ما نرى بينهما من النور إلا قليلاً، قال: و الذي نفسي بيده، لتظهرن البدع حتى لا يُرى من الحق، إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النور، و الله لتفَشُونَّ البدع حتى إذا ترك منها شيء قالوا: تُرِكت السنة).

و قال سهل بن عبد الله: (عليكم بالأثر و السنة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قريب زمان إذا ذكر إنسان النبي صلى الله عليه و سلم و الاقتداء به في جميع أحواله ذمّوه و نفروا عنه و تبرّأوا منه و اذلوه و أهانوه).

و ما أعجب كلمة هشام بن حسان حين قال: (ليأتينّ على الناس زمان يشتبِهُ فيه الحق و الباطل، فإذا كان ذلك لم ينفع فيه دعاء إلا كدُعاء الغرِق).

قال ابن القيم: (فإذا أراد المؤمن الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه و فقهًا في سنة رسوله و فهمًا في كتابه و أراه مالناس فيه من الأهواء و البدع و الضلالات، و تنكّبِهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط فليوطن نفسه على قدح الجُهّال و أهل البدع فيه و طعنهم عليه، و إزرائهم به، و تنفير الناس عنه، و تحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه و إمامه صلى الله عليه و سلم، فأما إن دعاهم إلى ذلك، و قدح في ما هم عليه، فهنالك تقوم قيامتهم، و يبغون له الغوائل، و ينصبون له الحبائل، و يجلبون عيه بخيل كبيرهم و رجله) انتهى كلامه.

و من ثم؛ فمن رغب أن يكون من أهل الطائفة المنصورة، وسط هذه الغربة الحالكة بحيث يكون كما قال ابن القيم - رحمه الله -، رأسًا في ذلك، يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا، حاكمًا على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تخيّله، زاهدًا في كل ما سوى مطلوبه، عاشقًا لما توجه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه و الطرق القواطع عنه، مقدام الهمّة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم، و لا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح و لا ألم الذم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزّه المعارضات، شعاره الصبر، و راحته التعب.

و مما يدفع به أهلُ الطائفة المنصورة فتنة ضغط الواقع أو فتنة الغربة: استعلاء الإيمان، حيث تمتلئ صدورهم و نفوسهم بالعزة التي جعلها الله لأهل دينه دون غيرهم، قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء: 139]، و قال تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يونس:65]، فالعزة كلها لله وحده وليس لمن حادّ الله و رسوله و دينه فيها أدنى نصيب، و إن ملكوا أسباب السماء و الأرض، و قد قال

تعالى في صفة أوليائه القائمين بدينه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [المائدة:54].

فهم ينضحون بالعزة في وجه أعداء الدين و إن كانت لهم الغلَبة، و و إن كان لهم السلطان المادي، إذ العزة بالإسلام لا بغيره، و في مقابل وصف أهل الإيمان بالعزة، قال تعالى في حق المحادّين له و لرسوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ } [المجادلة:20].

و قد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (الإسلام يعلو و لا يُعلى) [حسن، صحيح و ضعيف الجامع الصغير].

و للحديث قصة ذات دلالة هامّة، فعن عائذ بن عمرو أنه جاء يوم الفتح مع أبي سفيان بن حرب، و رسول الله صلى الله عليه و سلم حوله أصحابه، فقالوا هذا أبو سفيان و عائذ بن عمرو، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (هذا عائذ بن عمرو و أبو سفيان، الإسلامُ أعز من ذلك، الإسلامُ يعلو و لا يُعلى): فمجرّد تقديم اسم الكافر على اسم المسلم منافٍ لعلو الإسلام، بل مجرد العلو المكاني لا ينبغي أن يكون لغير أهل الإسلام و إن كانت الدولة و الجولة لأعدائهم، ففي غزوة أحد و بعد أن دارت الدائرة على المسلمين، علت عالية من قريش الجبل، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (اللهم إنهم لا ينبغي لهم أن يعلونا)، فقاتل عمر بن الخطاب و رهطٌ معه من المهاجرين حتى أهبطوهم عن الجبل.

و من اللطائف ما جاء في تفسير قوله تعالى: {فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ} [آل عمران:153]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد صلى اللّه عليه وسلم، والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل،

وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: ((اللهم ليس لهم أن يعلونا))؛ فمجرد علو الكفار المكاني على المسلمين، رغم كون الهزيمة من نصيبهم، و الدائرة عليهم مما يصيبهم بالهم و الغم، فالمسلم الحق تمتلئ نفسه و تفيض بكل معاني العلو المطلق، بما خصه الله تعالى و شرّفه به دون سائر خلقه، و إن كان في أبعد حالاته عن النصر و التمكين، و هذا ما ترسخ في نفوس الصحابة رضي الله عنهم.

فعن طارق بن شهاب، قال: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام و معنا أبا عبيدة بن الجراح، فأتوا على مخاضة و عمر على ناقة له، فنزل عنها، و خلع خفيه، فوضعهما على عاتقه، و أخذ بزمام ناقته، فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: (يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا! تخلع خفيك، و تضعهما على عاتقك، و تأخذ بزمام ناقتك و تخوض بها المخاضة، ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك)، فقال عمر - رضي الله عنه -: (أوّه، لو يقل ذا غيرك يا أبا عبيدة جعلته نكالاً لأمة محمد صلى الله عليه و سلم؛ إنا كنّا أذلّ قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله) [المستدرك 207].

و قد خاطب الله تعالى المؤمنين عند الحديث عن ما نزل بهم من البلاء، و ما جرى لهم من إدالة عدوهم منهم، فقال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: 139-142].

فنهى الله عباده المؤمنين عن الوهن و الحزن، رغم ما نزل بهم من البلاء و المحنة، و رغم أن الدائرة كانت عليهم و

ذلك لكونهم هم أهل العلو و العزة ما كانوا متمسكين بدينهم و إيمانهم.

فأساس العلو العزة هذا الدين الذي أكرمهم الله به، و لا عبرة بعد ذلك بضعفهم المادي، و كون الصولة و الجولة لأعدائهم عليهم.

قال السعدي - رحمه الله -: (يقول تعالى مشجعا لعباده المؤمنين ومقويا لعزائمهم ومنهضا لهممهم: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا} [آل عمران:139]، أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة وابتليتم بهذه البلوى فإن الحزن في القلوب والوهن على الأبدان زيادة مصيبة عليكم وعون لعدوكم عليكم بل شجعوا قلوبكم وصبروها وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم و قد ذكر تعالى أنه لا ينبغي لهم الوهن والحزن وهم الأعلون في الإيمان ورجاء نصر الله وثوابه فالمؤمن المبتغي ما وعده الله من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له ذلك ولهذا قال تعالى: {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:139]) انتهى كلامه [تفسير السعدي].

فمن مقتضيات ولوازم كون أهل الإيمان هم الأعلون، عدم الوهن و الحزن و الانكسار و طلب الأعداء و مواجهتهم و إن اشتد ضغط الواقع على المؤمنين بكون الصولة و الجولة و الدولة لأعدائهم، فيقع التنازل و التراجع استجابة لهذا الضغط.

و ذلك أن ترسخ هذه الحقيقة في قلب و نفس العبد المؤمن يورثه ثباتًا عظيمًا في مواجهة ضغط الواقع و إن اشتد و عظم، حيث يدرك المؤمن أنه الأعز و الأعلى، من كل ما حوله، رغم ضعفه المادي و تجرده من أسباب القوة المادية، كما يدرك أن ما يبوح للواقع الجاهلي من مظاهر العزة و العلو، و التي لها سطوة و هيبة على كثير من

النفوس إنما هي مظاهر كاذبة خادعة، و إنما هذا العلو و العزة وهم و سراب لا حقيقة له.

و ختامًا نقول؛

إن من يعيش الواقع من خلال كتاب أو مطالعة لوسائل إعلام أو غيرها، فلا يمكن أن يحكم على الواقع الذي يعيشه المجاهدون بطريقةٍ صحيحة، فلا بد أن يعيش بينهم و يعرف همومهم و أفراحهم و أحزانهم، و هذا هو شأن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان الأعرابي يدخل إلى المجلس فيسأل: أيكم محمد؟ لأنه صلى الله عليه وسلم كانت حياته بين أصحابه.

و لمّا فزع أهل المدينة ليلاً، انطلقوا قِبل الصوت، فتلقاهم النبي صلى اللّه عليه وسلم، و قد سبقهم إلى الصوت و هو على فرسٍ لأبي طلحة، ما عليه سرج، و في عنقه السيف، و هو يقول: (يا أيها الناس، لن تُراعوا).

فالذي يعايش الواقع عن بُعد، و لا يعيش تفاصيله، و لا يواجه نوازله و ابتلاءاته، فلا شك أنه سيبقى بمنأىً عن سهام أهل الكفر و انتقاداتهم، حتى يبقى السيرة نقي الصورة، و أما المجاهدون فإنهم يخوضون مع أعدائهم غمار الحروب، فطريقهم واضح المعالم و الأهداف، و هم في سيرهم إلى ربهم يوالون فيه و يعادون فيه، و يحبون فيه و يُبغضون فيه و حاديهم: اللهم لك العتبى حتى ترضى.

و هم في سيرهم غير مبرئين عن الأخطاء و المعائب، فإذا أصابتهم قروحٌ و ابتلاءات أو هزائم و جراحات، سلقهم القاعدون بألسنةٍ حداد، و نظّروا سبب هزيمتهم بما يرونه على طريقتهم، فليتهم كانوا في أوائل الصفوف، و خاضوا معهم غمار الحروب، و عاشوا الجهاد بحلوه و مرّه، و ما يتعرض له المجاهدون من ضغوطات تنوء بحملها الجبال، إذًا لو نَصَحوا و نظّروا لقبل منهم.

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أهل طاعتك، و يذل فيه أهل معصيتك، و يؤمر فيه بالمعروف، و ينهى فيه عن المنكر،

اللهم ارفع الضيم و الذل عن هذه الأمة، و ارفع راية الجهاد في كل واد و باد،

{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [يوسف:21]

و الحمد لله رب العالمين.

أَبُوْ مُصْعَبٍ الزَّرْقَاوِي
أَمِيْرُ تَنْظِيمِ القَاعِدَةِ فِيْ بِلادِ الرَّافِدَيْن
العِرَاقُ – بِلادُ الرَّافِدَيْن